الجامعة الإسلامية

ومَوقِفُ الدَّهرِ مِنها

بقلم

رفيق وهبة

محاضرة ألقيت فى جمعية الشبان المسلمين بمصر

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

دار الهدى للطبع والنشر والتأليف

شارع درب الهدى رقم ١٠٣ بالقاهرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

الحاج أمين الحسيني كلمة ملء فم الزمان ، ورمز الجهاد المقدس

obeikandl.com

فى كل مكان ، وقد بهتت فيك سيدى جهود ، وحفظت بك عهود ، وأنت بين الجهاد والجلاد علم مشهود .

دعوت إلى المؤتمر الاسلامى العظيم فلبى المسلمون ، وقلت كلمتك فاصغى الزمن وتردد الرجع فى أعماق القرون ، فانت بطل إسلامى حين أيقظت سبات المسلمين الغافلين ، وأنت بطل وطنى حين أوقفت جهودك لوجه فلسطين .

فيا أيها الاسد الهصور ان الزمان سيمر بمافيه وأنت وحدك الحقيقة الخالدة ، لمثل هذا فليعمل العاملون .

فى كل عين أنت قرتها فى كل جيل أنت علياه

٢٥ مايو سنة ١٩٣٩ رفيق وهبه

المقدمة

بقلم الاستاذ عبد الله العلايلي

اليقظة الاسلامية والاستعمار ـ الاسلام دين قوة لانه دين ودولة ـ الاسلام دين وجنسية ـ السيد الافغاني والجامعة الاسلامية ـ هل السيد الافغاني كان متأثرا بالافكار الروسية التي روج لها أمثال تولستوى ـ رفيق بك العظم ورسالته الجامعة الاسلامية واوربا ـ المصلحون الدينيون أمثال أمير سيد على الهندى ومحمد عبده وعبد المحسن الكاظمى ـ أثر مولانا محمد على فى الدعوة إلى الجامعة ـ الحركة الفقهية والمذاهب ـ ابن حزم وكتاب مراتب الاجماع ـ رأينا فى التوحيد المذهبى ـ الفرق الاسلامية ومقام الدروز بينها

لم تأخذ فكرة التقارب المذهبي شكلا عمليا على صورة جدية الا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكان لهذا الاخذ بواعث عاملة ناصبة جعلت المسلمين على اختلافهم فى وجوه النظر التى قد تغلو فتمس الاسس الاعتقادية ، يشعرون بهذه الحاجة ويعملون لها حثيثا ومعاجلة

وكانت البواعث تجتمع فى الطغيان الاوربى الذى كان شديد الوطأة ، وساعد فيه انه يحمل مسحة دينية الى جانب العدوان على الحريات ، فلم يكن طغيانا استعماريا فقط يمس كل شىء فى غير تطفل على الاديان ، بل تطفل وبالغ فى التطفل حتى انقلب شيئا استفزازيا غير محتمل ، وكانت طلائع التبشير تسبق طلائع الاستعمار وتعبد له السبيل ، وهى على الدوام تكون فى المقدمة

وهذا ماجعل المسلمين يرمقون التدخل الاجنبى بالنظر الشزر ويحقدون عليه حقدا طامساً ويتآمرون به .

وفى مَكِنَتنا أو هو الواقع التاريخى أن نؤرخ الانبعاث الاسلامى فى العهد الجديد بالتبشير الاستعمارى ، ويظهر أن اليقظات تتشابه فى مقدماتها ونتائجها ، فى كل عصر ، فى كل مكان ، فان تاريخ اليقظة الاوربية يبتدىء بحملة استعمارية اسلامية من جانب الترك فى أرض بيزنطية ، لذلك ننظر إلى المستقبل القريب برجاء ملء الأمل مادامت النتائج تتبع المقدمات على وجه اللزوم

كما يعبر المناطقة . فاذا كانت نتيجة الانبعاث الاوربي هذه الحضارة المرموقة فستكون نتيجة انبعاثنا حضارة ينحسر التصور في كنهها .

وبالاخص اذا كان النظر في حدود الاسلام الذي هو عامل قوة حقيقية وفي عنصريته اداة الدولة والحكومة وليست كذلك المسيحية التي هي ديانة تألّه خالصة وكهنوتية بحتة، فلم تعن بأن تهيمن على الدولة وتجمع القوى في يد، والقلوب في اليد الاخرى بل اكتفت بأن تنفرد بالناحية الثانية وتعمرها . وهذا هو السر في دوام الاختلافات الدولية بين القوى الاوربية ويجمعها دين، لان التشبث بالمصلحة بأية وسيلة لا يتنافى مع المسيحية، وأما الاسلام فقد جعل في الدين ميزانا للوسائل التي بها يُحافظ على المصالح ، وبعد هذه الوسائل وقربها منه يكون حقها وباطلها، فلا يستطيع الخصم ان يستخدم ما يتراءى له من الوسائل للمحافظة على مصالحه بل في حدود وقوانين، مما يظل معه للمسلمين على اختلافهم

قانون اساسي لايتنكبونه .

وبذلك يكون قد حفظ القوى فلا تذهب متناحرة إلى درجة الفناء ، وهذه ناحية القوة فى الاسلام . واعتقد بأن اعظم مايهدد الاسلام مما نثرت علينا اوربا من التعاليم نظام القوميات الحديث الذى بات مفتونا به اكثر المشتغلين بالشئون العامة ، رغم ماظهر من فساده عمليا فى سرعة فائقة فى مختلف الانحاء الغربية

ولست أعنى بضرره أن لا نعمل به مضطرين تجاه الحوائل القائمة بل أن نعمل به فى نطاق أوسع على أن لايجعل قاعدة ثابتة للجهاد . فان الاسلام دين وجنسية ، وبذلك يرتفع المسلمون جنسا واحدا فوق حدود الاجناس والمعالم الجغرافية . ولعل الكميت كان أول من سقط على هذا المعنى ، فى قوله يرثى النبي (ص) .

بك اجتمعت أنسابنا بعد فرقة

فنحن بنو الاسلام ندعى وننسب

ولا نتوسع الآن فى بحث من هذا النوع لمناسبة تخرج

بنا عن الموضوع. فكر المسلمون بضرورة التآخي الاسلامي واحياء الجامعة الاسلامية مهما كلف الامر وعنى، وايقنت الطبقة الاولى من حملة لواء الجهاد والنهضة، انها - أي الجامعة الاسلامية - الهدف الذي يجب أن ينزل بين اهدافنا العامة منزلة القاعدة في البناء، فدعا اليها السيد الافغاني أول من دعا، غير هياب ولا وجل مطمئنا إلى أن المسلمين قوة ترهب، اذا أحلوا التفاهم محل الخلاف، وتركوا مايختلفون فيه إلى مايتفقون عليه. وقوى الامل عند هؤلاء الدعاة في النجاح، ان الفرق الاسلامية ترى أن ما تختلف فيه، ليس في قوة ماتتفق عليه.

وعندي أن الذي جعل دعوة السيد الافغاني لاتجاوز كونها صدى أو رجعا فكريا، ولم تتمثل إلى أن تكون حركة عملية ناجحة رغم أنها جاءت في إبانها ولاقت أفئدة معدة كل الاعداد، كأنما هي معبرة عما يجول في انفس الناس ويعتلج في حنايا الصدور، كون السيد الافغاني برئ إلى أكثر من احياء الجامعة الاسلامية،

يرمى إلى إحداث ثورة انقلابية تشمل المحيط الاسلامى على اختلاف ألوانه ، وتتناوله من شتى أقطاره ، ليقدم المحيط لبنات جديدة ، تصلح لاقامة البناء الجديد . فقد كان يرى أن الفساد ليس فى نسق وضم اللبنات فقط ، بل فى اللبنات نفسها أيضا .

ولذلك اقدر ، وان تكن فكرة شخصية ، أن السيد الافغانى تأثر إلى حد محدود بالافكار التى كانت تجيش فى المحيط الروسى وتبلبل الرؤوس ، وان لم تكن اتخذت بعدُ شكلها الفعلى الثورى . فلم تكن تعاليمه انشائية بل تهديمية ، وكانت آيته ان يتمخض كل مجتمع حل فيه عن ثورة مستطيرة ، ففى الهند ومصر وفارس والقسطنطينية بعثرات ماد بها المجتمع إلى حين .

فالسيد الافغانى كان داعية إلى أفكار حرة مطلقة ، افكار بلشفية لم تأخذ بعدُ صبغتها الفلسفية الثابتة ولونها الاجتماعى الخاص وطابعها المتميز ، ومن ثم لا نبعد اذا ربطنا هذه الثورات التى كانت من عمل يديه فى الحقيقة . بالثورة البلشفية الكبرى

بيد أنها جاءت سابقة لاوانها . وأنا أرجح أن السيد الافغانى كان منتسبا إلى خطـة رومية على أى حال .

ولا يؤخذ علينا تعبيرنا بالبلشفية فان مانريد هو تقريب مانعنى دون تحقيق في التعبير ، وبذلك يكون بينهما صلة ماعلى نسبة . وهذا رأى وان كنا ننفرد بهو يستنكره علينا كثيرون، فانه يفسر حركات السيد الافغانى تفسيرا إلى مدى بعيد .

وفى غير تطويل وجنوح إلى الاستطراد ، اذكر بأن الجامعة الاسلامية كفكرة ، اختمرت فى رأس كثير من المفكرين فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكان أكثر هؤلاء غيرة على الفكرة وعملا اليها وفهما لها ، رفيق بك العظم ، حتى بدا فى رسالته (الجامعة الاسلاميةواروبا) كما يبدو المحب الغيور، يغارلانه يحب ولا اكتم انها تستهوينى كلما عدت إلى قراءتها ، فهى ثمرة من النضج التفكيرى والنظر البعيد والسماوة الذهنية . وهو انما الفها بيانا لمدى التخوف الواهم الذى يأخذ الساسة الغربيين كلما

مر بسمعهم كلمة (الجامعة الاسلامية) . وهي في غايتها ترمي إلى التمهيد الحقيقي للفكرة وتبييد الحوائل الكبيرة التي فيها حفظ كبير من الخيال المجرد .

ولقد حال دون نفوذ هذه التعاليم نفوذاً جارفاً ، ان المسلمين استفاقوا فاذا بهم أمام فروق دينية لا يمكن التغلب عليها بسهولة أبداً ، وبالاخص في طبقة السواد الاعظم من كل قبيل ، وبعد ان ارّثتها عوامل الزمن الطويل . وكان الظرف رغم هذا قد تهيأ لسماع كلمة الدعاة الدينيين حتى يستجيب لهم ، فكان في مقدمة هؤلاء أمير سيد علي الهندي والشيخ محمد عبده والشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وربما كان اسبق الجميع إلى دعوة الايقاظ الشيخ الكاظمي ، فقد كان الف قبل مرور السيد الافغاني بالعراق كتاب (تنبيه الغافلين) ، وفيه دعوة عامة للمسلمين لينظروا الى الفروق بينهم لا من وراء الوصاوص الضيقة ، بل من وراء عيون كأنها المجاهر . وهذه الدعوات لا تفتأ تزيد قوة وتبعث

فيها الايام روحا نشيطة حتى تستوى واقعاً حياً .

ولعل اقوى الدعاة فى القرن العشرين الذين صاغوا الدعوة إلى الجامعة الاسلامية بصيغة تنتهج مع الاسلوب المدرسى ، مولانا محمد على الزعيم الاسلامى الكبير الذى وقف عليها كل جهوده . وكانت النتيجة العملية لهذه الحركات المتعاقبة ، المؤتمر الاسلامى الذى انعقد فى القدس ، فقد كان هائلا بما ضم من رجالات من مختلف الاقطار الاسلامية ، وقد عبر احسن تعبير عن استعداد القوى فى المحيط الاسلامى الواسع للعمل مجتمعة ، وان كانت تنقصه المؤهلات اللازمة التى لم يسمح بها الظرف بعد ، وان من الحكمة ان لا نستعجل بها الزمن حتى تجىء نتيجة طبيعية للاختمار . ولكن مما يبتهج له على أى حال أن الدعوة أخذت اليوم صوغا تعليميا ، وبدأت تنبث فى الطبقات من كل مجتمع كاسمى مثلنا العليا .

***

ولقد تولد ونتج عن هذه الحركة التي كان من غايتها تقريب شقة الفرق المتباعدة في وجهة النظر . حركة فقهية جليلة الشأن ترمي إلى توحيد المذاهب الاجتهادية في الفروع ، فانه ضرب من توحيد الثقافة في جانبها الديني التي هي اس النهضة المنتظرة والبعث الانقلابي الخطير .

ومن ملاحظاتنا الهامة أن أول من فكر تفكيرا جديا في هذه الحركة ، الامام أبو محمد علي بن حزم الذي ابتدأ امره شافعيا ثم ظاهريا ثم داعيا إلى توحيد المذاهب الفقهية ، وان لم يصرح هو بغايته . ولم يفهم مؤرخو التشريع الاسلامي القصد الصحيح من اخراج كتاب (مراتب الاجماع) المرتب على أبواب الفقه ، ولذا تعقبه المحدث الكبير ابن تيمية باحصائه مناقضات وقعت عنده ، بين ماجاء في هذا الكتاب وبين ماجاء في كتبه الاخرى كالمحلى والاحكام والفصل . وذلك لانه لم يفهم الفكرة الاساسية من وضعه هذا المصنف الجليل ؛ وهو بلا ريب

يعبر عن فكره مختمره ، واقدر بأنه من آخر ماأنتج هذا القلم العبقري . ولقد كنت اتشوف إلى اخراجه بحلة دراسية عميقة تعرف بمقاصده السامية ، وعلى كل وان لم يخرج بالثوب اللازم اضفاؤه عليه ، فما يربح أنه أخرج وأصبح في متناول الايدي ، بحيث يمكن أن تعطى عليه دراسة تشجع الدعوة القائمة . وهذا الكتاب بضمه المجتمع والمتفق عليه أو كالمجتمع عليه أنار السبيل القصد وجعله أمما . ثم لا نغفل كتاب ابن رشد الحفيد (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) الذى جاء صنواً أو كهنو لكتاب ابن حزم الجليل .

وهنا نقيد ملاحظة عرضت لنا ابتناء على أصل ذكره العلامة السيوطى فى (الاشباه والنظائر الفقهية) وان كان فيها نصيب من قياس الفارق وانما نثبتها أخذاً بقاعدة الاحتياط فقط ، بأن الشك فى العبادة يقتضيها ، وعليه فالمقلد المجتهد فى فرع ما ، اذا دخل ببقية عبادته على اثر فى فن المجتهد لاشك القطع

بأحقيته في مجال الظنون ، فهو بناء للعباده على الشك الذى هو ناقض لها . وهذا لازم على قول المخطئة أو المصوبة ، وبيانه على قول المصوبة يظهر فى المسائل التى تقال بالتضاد اللغوى بين الفقهاء وتكون النسبة بينها كالنسبة بين الشيء والمساوى لنقيضه ، كمس البضعة الناقض للوضوء عند الشافعيه وليس بناقض عند الحنفيه ، ضروره ان الحق لا يقال على الشيء ونقيضه أو المساوى للنقيض وإن فى مجال الظنون قطعا ، فان الاحتمالات الظنيه فى مثل هذا النظير كالاحتمالات العقليه الملزمه ، وعليه فقول المصوبه فى هذا خُلْف . مما ننتقل معه إلى قول المخطئة وله تفسيران (١) أن الحق واحد لا بعينه وما عداه خطأ . (٢) ان الحق بالنظر إلى المقلد قول امامه وما عداه خطأ .

وقول المخطئة على التفسير الاول ، ظاهر كيف هو بناء للعباده على الشك فلم يبق الا التفسير الثانى فانه يقوّم العباده وعلى المقلدين ان يبنوا عباداتهم عليه ، ولكن اعتماده يمنع التقليد بله التلفيق

ويوضح هذا ، الاصل عند الشافعية القاضي بسنية الفعل خروجا من خلاف من أوجبه إلا اذا كان يترتب عليه كراهة في المذهب ؛ كصوم يوم الشك فقد أوجبه الحنابلة وكرهه الشافعية. وعليه فنحن بين أن نقول بقول المصوبة او المخطئة وعلى كل لا تصح لنا عبادة بجمع الأمة على صحتها ؛ واجماعهم ليس ضروريا في صحة العبادة وانما هو أولى ، وهذا حرج كبير واجب أن نخلص منه بأى حال ؛ وإنما يرده عند الاولين انها مسائل فرعية يكتفى فيها بالظن ولا يلزم فيها القطع كما بينه العلامة الشافعي العلائي في (القواعد الكبرى) ولسنا نريد أن نتوصل إلى الشك في عبادات الناس فان التفسير الثاني لقول المخطئة يصححها ، وهناك بعض من الفارق بين الاصل الفقهي وبين مظنة الخطأ في ظن المجتهد كما لا يخفى. فعبادة الناس صحيحة بلا خلاف فان مالا عبرة به إنما هو الظن البين خطؤه فقط ، وتبين الخطأ في ظن المجتهد بحيث يرفع النزاع محال قطعا فان لدلائل كل مجتهد نصيب من النظر القوى مهما تورك

عليها ، فاقوال المجتهد اذن من قبيل الظن الذي لم يتبين خطؤه بصورة قاطعة للنزاع ، فهي معتبرة شرعا ومحصلة للقدر الذي به يسقط التكليف . وإنما نريد أن نتوصل إلى بيان أن الدعوة إلى توحيد المذاهب لها نصيب من النظر الديني والاستقامة التعبدية .

وان من ارصن ماسمعت طرفة تدر بها العلامه السيد[1] حبيب العبيدي مفتي الموصل وقد جرى الحديث عن المذاهب والخلافات الفقهية فقال (انا إلى اليوم لا اعرف نتوضأ) مشيرا الى جسامة الخلافات حتى لا يكاد يصح معها وضوء ، فالحنفية يشترطون النية والترتيب والمالكية يشترطون الموالاة والحنفية مسح ربع الرأس مما لا يتفقون معه على تصحيح وضوء . ونكتفي الآن بهذا البيان الموجز لانه استطراد قد يخرج بنا عما نريد الانتهاء اليه ، ولكن

---

١) رجل من أكبر رجالات العراق يضم الاخلاص إلى العبقرية وهو مصلح ديني ومفكر اجتماعي ولعل اعظم مايعرف به كتابه (النواة في حقول الحياة) .

يعرف على كل حال بالملاحظة التى نود اثباتها .

ومهما يكن من شىء فان الحركة الفقهية ، تولدت من حركة التقارب المذهبية ، ومن تباشير النجاح أن الجمهور بله الخاصة ، غدا يقابلها بحماس شديد ، وهذا له مغزاه . وان النظر اليوم يتجه إلى الازهر ، باعتباره أكبر جامعة اسلامية عالية تحوز من ثقة المسلمين أكبر نصيب فى أن يتمم هذه المحاولة التى هى قمينة بالنجاح والتوفيق . وفى الحق أنها جزء من رسالة الازهر الكبيرة الاعباء ، ولكن هذه الخطوة اكبرها جميعا . وان وجد فى العلماء من يتأثّمها ، فانما نشأ من القالب الذى فرض السير عليه فى التوحيد المذهبي المرتقب ، والا فقد تقبل فقهاء الدولة العلية ـ دولة الخلافة ـ فى زمن التنظيم القضائى بدون نكير ، الاخذ فى (مجلة الاحكام العدلية) بمثل قول ابن أبى ليلى وترك مذهب أبى حنيفة فى بعض الفروع ، رغم ان الاعتماد فى تقنينها كان على المذهب الحنفى كما أوضح هذا العلامة التركى على حيدر صاحب شرح

المجلة المذكورة وكذلك كان العمل فى قانون العائلة العثمانى كما جاء موضحا فى مذكرة البيانات والبناءات منه .

وهذا كله جنوح إلى الاقتباس الذى هو المرحلة الاولى من توحيد المذاهب ، وهؤلاء الذين يتأثرونه على صورة أن يلغى العمل بالمذاهب مطلقا ، لم الحق فى ذلك ونحن نشاركهم الرأى والتخوف .

ورأيي أن تكون خطة العمل فى هذا السبيل ، بان تجعل المذاهب ـ بما فى ذلك مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ـ مهيمنا لتلقى الاحكام ، وينحصر عمل اللجان الفقهية أو المجمع الفقهى فى ترجيح حكم فى مذهب ما على الحكم فى المذهب الآخر ، بحسب المقتضيات الظرفية والعرفية ، على أن يكون هذا الحكم الراجح عرضة لان يكون مرجوحا اذا وجدت مقتضات تحمل على ذلك . وعليه فما وقع اختياره من الاحكام المجموعة التى هى المذهب الموحد ، يكون بمنزلة

القول القوى فى المذهب وسواه يكون بمنزلة القول الضعيف يجوز العمل به فى خاصة الانسان ولا تصح به الفتوى كما هو الشأن فى أقوال المذهب الواحد . وبذلك تكون المذاهب على اختلافها بمنزلة الاقوال والوجوه والروايات للمذهب الموحد ، اقواها ما وقع الاختيار عليه فى كل دورة تنقيحية .

وبعد فلا اظن أحداً كائنا من كان يجد غضاضة فى أخذ كهذا الاخذ ، ونهج على هذه الشاكلة ، الذى يضم المذاهب كمرجع اساسى للتشريع وهى ثروة عظيمة نستفيد منها فى كل حين ، وتكون مهمة المجمع الفقهى كمهمة المجتهد المذهبى فقط بحيث لا يجاوز اجتهاده حدود الترجيح والاختيار .

هذه خطوة مباركة وواجبة ، لتضع حدا للفوضى فى الفتوى التى تبدو على وجه منكر والتى تأخذ شكل التلاعب والعبث فى الاحكام ، ولقد شعر الاولون بأثر هذه الفوضى ، فارادو وضع حد لها ولكن صاغوه بشكل لاينفى الفوضى وإنما يسترها ،

فقالوا (مذهب السائل مذهب مفتيه) ليخففوا من حمى البلبلة . وعلى كل شاء القوم أم أبوا فان المعنويات التى تسير الاجتماع الحديث وتدفعه ، بالغة هذه الغايه إن لم يكن سريعا فلا بد أن يكون حثيثا .

* * *

والذى يبعث على الارتياح العميق ، شعور الفرق الاسلامية بمكانها فى المحيط الاسلامى العام ، وشعورها بشىء آخر هو سلامة الاسباب فى تواصلها ، والتوفر على تمكينها وإزالة عوامل الفرقة بالمقدار الممكن . وهذه الرغبة التى لاتحد ، والالحاح فى ادراك القصد ، تبعث اطمئنانا شاملا وأملا موفورا

واظننى صادق الحدس اذا قلت باننا لن نستقبل النصف الثانى من القرن العشرين الا وقد أصبحت الجامعة الاسلامية حقيقة راهنة جاوزت دور الدعوة إلى كونها واقعا عمليا ، بما نرى من عزيمة عاملة وسعى لاينى ونشاط يبالغ ولا يفتر . يحدو

كل ذلك اخلاص وفير ، لاتختلط به شائبة ولا ينطوى على دخن. ونحن وإن كنا لانشك بأن هذا التفاهم لن يتم على أساس التنازل مرة واحدة عما يقوم عليه رأى كل فرقة وملابساته ، بل على ضرب من التسامح والاغضاء . فان مما لاشك فيه أيضاً أنه سيقلل من حدة الخلاف وعصبيته ، ويحقق الاندماج الصحيح فى آخر الامر .

وقد أصبح بين ايدينا اليوم معلومات صحيحة عن كثير من الفرق ، التى كانت عند اسلافنا محجبة أو كأنها مرصودة بطلاسم تحوى السر الرهيب ، بيد أنه قد آذنت هذه الطلاسم أن تنكشف عما وراءها . ومن المهم أن نثبت بأن ماقبل ذلك من نقول اتسمت لها اخيلتنا ، لاتجاوز كونها تكهنات قد يصدق فيها الحدس وقد يطيش .

ولعل أهم هذه الفرق بالتعريف : الطائفة الدرزية التى تحتل مكانها فى قلب البلاد العربية ، والحق أنها تنزل بمكارمها وخيمها

وأعلاق شيمها ، منزلة السمى المثل العربية الكريمة ، وطائفة هذه قيمتها لا يمكن أن نشجبها بتغافل مطلق . وإنما على المسلمين أن يتعرفوا اليها ويشجعوها على التعريف عن نفسها .. ثم لا يسعني الا أن اثني على الاستاذ رفيق وهبه وهو شخصية دينية في الطائفة ، بمحاولته القيام بالدعاوة المشكورة التي لابد أن تجد بين عامة المسلمين تنشيطا وتشجيعا .

وهذه الرسالة أولى محاضراته التي أهاب بها الجمهرة الاسلامية إلى أن تعرف من امور الاقليات الاسلامية الاخرى مالا ينبغي أن تجهله . ولقد بدا فيها هادئا كما يوجب الاسلوب العلمي ، وانا اسجل باعجاب هذه الفقرة من المحاضرة . (تبدو الدعوة الى الائتلاف صعبة سهلة ، صعبة لأنها تقوم على تقاليد وخلق موروث ، وسهلة لانها تقوم في وسط نحلة وتجتمع على دين . بيد أن الناس أصبحوا يدركون من امورهم أكثر مما كانوا يدركون ويرون الضرورة تقضي باجتماعهم ، وهم لذلك يحلون اختلافاتهم

محلا ثانوياً ويقطعون من حلقة تاريخهم فترة الاختلاف والتنازع الضال، ليصلوا تاريخهم الحاضر بتاريخهم القديم تاريخ العهد الرسولي) والذي أعرف عن الطائفة ويعرفه كل منصف أنها كانت على الدوام شعاراً في عواطفها مع العامة الاسلامية، ولقد سجلت صفحات ناصعة في التاريخ الاسلامي. ومن يجهل مواقف رجالاتها الافذاذ في الدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين، وإذا كنا لا نعرف الامير شكيب أرسلان ومواقفه الدفاعية عن القضية الاسلامية في الشرق والغرب، فانا لا نعرف مجاهداً دينيا وسياسيا أبداً.

وفي النهاية أوجه معتبة حارة الى اولئك الكتاب الذين همهم تقييد كل مايقع لهم من اخبار ونقول، وإن كانت تجافي الحقيقة وتناكرها، ولا تستوي مع الاسلوب النقدي الحديث وعلينا أن لا نحكم دراستنا بما نجد عندنا من نزعات عافية، كما اثبت في كتاب (أشعة من حياة الحسين) ص ٨ و ٩ (فان الدراسة

تستدعي تمهلا وأناة وروية بالغة وتستدعي شيئا آخر ليس من هذا الذي نذكر ولا اليه وهو التجرد عن شتى النوازع والسيطرات الوجدانية والاعتقادية والا فأية رؤية اذا كانت محكومة بنازعة أو مغلوبة بنزعة تكون مبالغة واغراقا في تقرير الجانب الشخصي فقط . وهذا لا يفيدنا سوى احياء الاختلافات التي كانت مصبوغة بصبغة اللاهوت ، لتأخذ صبغة جديدة من التاريخ التحليلي النقدي) .....

عبد الله العلايلي

بيروت — مؤلف كتاب مقدمة لغة العرب

تصـــدير

الداء الدوى فى الشرق الاسـلامى الذى ينبث فيفتك فتكا ذريعا ، والذى أعيى المجاهد السياسى امره ، وفت فى عضد المصلح الاجتماعى حتى بات حيران ماذا يصنع ، ومن أى مأتاة يتبع سواء القصد . ربما ينحصر فى التنازع المذهبى ولا يجاوزه ، وهذه حقيقة صريحة فان هذا التنازع يستعر أحيانا إلى درجة كبيرة ينسى معها المنتسبون إلى هذه الفرق ، الحقيقة الاسلامية الكبرى التى تجمعهم على أى اعتبار .

وهذا شىء يجعلنا ننطوى منه على أسى وألم مريرين ، ويجعلنا نهيب بالطبقة الدينية من كل قبيل ، بأن يقوموا برسالتهم الصحيحة فى بعد وانتفاء من الذاتية والغرضية الذريعة الفتك والاجهاز ، وعليهم كل تبعة فى تأخر المسلمين فانهم وحدهم الذين فى استطاعتهم أن يمروا باليد الآسية على الضعف فيستبدلون به قوة .

ولقد أثبت كثير من النقاد الاجتماعيين ان العلة فى تأخر العالم الاسلامى لاتعود إلى عائق من العوائق السياسية والحيوية وملابساتها ، وإنما تعود إلى العائق المذهبي كما جاء فى (مقدمة الاستاذ العلايلى) والرجال الدينيون فى استطاعتهم أن يأخذوا بيد المسلمين فى السبيل السوى . وليس عند المسلمين من علة تحد من جهودهم الكبيرة فى سبيل الانبعاث والنهوض الحى ، شىء وراء هذه النزعات

ونحن إذا قررنا فكرة من هذا النوع فليس من قصدنا فيها إلا الاخلاص لقضيتنا الكبيرة المقدسة ، التى تنزل فوق كل الاعتبارات الاخرى ،

وبعد فان الطائفة الدرزية من أشد الطوائف غيرة على القضية وعملا لها وسعيا وراءها ، وبين رجالات الانبعاث الاسلامى جمهرة كبيرة من الدروز .

وهؤلاء قاموا بتقديم أكبر مجهود يحمده لهم الجميع ويكبره

كل مسلم مفكر منصف ، ولعلنا إذا ذكرنا شيخ المجاهدين الامير الجليل شكيب ارسلان في هذا المعرض الذي يجيء فيه أمة وحده بما توافر له من خدمات جلى ومواقف حميدة ، فقد غنيناهن ذكر أي آخر ، فانه ببلائه المستمر سجل رقما قياسيا أو فوق القياسي للرجل المسلم المكافح المخلص

وكفى بالامير والرجالات الكثر في مختلف الاقطار ، ممثلا لوجهة نظر الدروز من حيث الجامعة الاسلامية والائتلاف تحت راية الاسلام .

ومن شاء ايضاحا أكثر من هذا فليسأل الجزيرة العربية وليسأل مصر ويسأل فلسطين فهناك (عند ابن خلدون) يجد الخبر اليقين

ومن الخطأ الجسيم الظن بهؤلاء المجاهدين الابرار انهم انما يعبرون عن أفكار شخصية فقط ، والحق أن المجموع الدرزي برمته ، يشعر بشعورهم ويتجه في مثل اتجاههم ويقول بقولهم .

ثم لا نغفل أن نهيب بالمجموع الدرزي إلى التعريف عن نفسه

بشتى الطرق على أن تفسح الجمهرة الاسلامية لهم السبيل وتساعدهم .

وبالأخص الأزهر الشريف الذى هو أكبر جامعة دينية اسلامية .

ومعنى هذا أن يعمل الأزهر على نشر الدعوة الاسلامية النقية وأن يوجه بعثات علمية لتغذى الوسط بروح الاسلام الصحيحة ؛ وما إلى ذلك مما يضمن النهوض بالمستوى العام ، فتتكون الوحدة وتتوثق عرى المحبة والاتحاد .

وأنا مافتئت منذ حللت القطر المصرى أسعى تحت شعور الواجب ودوافع الايمان مع الرجالات المختصين ، والذين يعنيهم هذا الامر ، لتحقيق هذه الامنية وللتعريف جهد الطاقة بعادات طائفتى ومعتقدات قومى فكنت أجد تحبيذا من الجميع فكل يتمنى هذا ويشعر بما له من الاهمية الكبرى

ولقد أبدى الشيخ الاكبر شيخ الجامع الازهر فضيلة الاستاذ

محمد مصطفى المراغى الذى هو أكبر من يعمل فى هذا الحقل من الوجهة الدينية رحابة صدر وتعضيداً وتحفيزا فى المقابلة التى تشرفت بها وعلقت أملا أكبر أمل بالنجاح وحسن المستقبل، مادام شيخ الاسلام يعمل لتوحيد كلمة المسلمين .

بيد أن الكتاب الذين يشوهون الحقائق يتركون آثارا سيئة جدا ، ونسوق هنا مثلا من تلك التخرصات والترهات (ولم تثمر الدعوة الباطنية ثمرتها العملية ، إلا فى وهاد الشام حيث انتظمت فى فرقة ثورية ملحدة جديدة هى طائفة الدروز ، التى تضم زهاء مائتى نفس يدينون إلى يومنا بكثير من هذه المبادىء الالحادية المدهشة :

فهم على مادعا اليه حمزة بن على منذ أكثر من تسعة قرون ، ينكرون الالوهية فى ذاتها ويعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وفى رجعته آخر الزمان . ولهم فى تصويرها أقوال مغرقة، وينكرون الانبياء والرسل جميعاً وينكرون أصول الاسلام والنصرانية

واليهودية ، بيد انهم ينتسبون ظاهراً إلى الاسلام ، ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمون وأمام النصارى بأنهم نصارى . ويبغضون فى الباطن جميع أبناء الاديان الاخرى ولاسيما المسلمين ويستبيحون دماءهم وأموالهم . والالوهية البشرية وهى لب مذهبهم ، عندهم منة المنن ونعمة النعم)

هذه فقرة من كتاب كبير الاستاذ عبدالله عنان ، خصه بحياة الحاكم بأمر الله وتناول فى أثنائه الفكرة الدرزية والدروز ، وأخذ فيه على نفسه كما يقول فى مقدمة الكتاب الحرص (أثناء استعراض المسائل المذهبية ، على أن نبقى ما استطعنا فى دائرة البحث التاريخى ، فاذا كان لنا ثمة آراء وتعليقات خاصة ، فهى ثمرة البحث والنقد الحر ، لم نتأثر فى ابدائها باية نزعة أو فكرة مذهبية ، وهذه حقيقة نرجو أن تقدر قدرها) فى هذه الأسطر القليلة أوضح الاستاذ منهجه فى البحث ، وهو منهج كل مفكر عصرى يرمى إلى تقرير الحقيقة ما أمكن ومقاربة الواقع فى غير

اعتماداً على خصوبة الرأى وأصالة الفكر بالمذهب ، وخليق بكل باحث أن تكون هذه خطته فى عرض المسائل وتقرير نتائجها .

ولكن لا أظن أن الأستاذ عنان وفق فى العمل بهذا المنهج ، والمجرى على هذه الخطة إلى آخر الشوط الذى رسمه لنفسه . فإن التكهنات والمثالب التى راح يجمعها من هنا وهنا للحط والزراية على الدروز ، لا تعبر أبداً عن احترامه وتقديره للمذهب الحر فى النقد . فهو يتهمهم تارة بالنفاق أمام المسلمين والنصارى ، وتارة بالالحاد ، وآونة بأنهم فتاكون مغتالون ، الى آخر ما شاء له مذهبه النقدى الحر أن يملى عليه ، ونحن وإن كنا لا ننكر معه بأن المذهب الدرزى فى جوهره قد يبعد عن مذهب أهل السنة فى كثير ولكن بهذا المقدار الذى يتصوره أو يشاء تصويره ، فلا .

ونحن فى الكتاب الذى سنخرجه عن الدروز ونحلتهم ، سنبين حقيقة المذهب مستندين الى النصوص الصحيحة المعتمدة ولا أظن أحدا يقرأ قوله (حيث انتظمت فى فرقة ثورية ملحدة

جديدة هي طائفة الدروز) الا ويخيل اليه انه يقرأ لقسيس من كتبة القرون الوسطى ، التي تعتمد في دحض شبهة الخصوم على مجموعة كبرى من المثالب وليس من قصدنا أن نطلق على ما يجيء به وانما نوجه النظر إلى أن مذهب النقد الحر لم يصبح عندنا حقيقة عملية بعد ، وانما يتخذ ستارة من مذق اللسان . وفي الكتاب قسط كبير من هذه المثالب اغضينا عنها الى حين .

ومهما يكن من شيء فان الدروز تربة صالحة وثروة خصيبة لكل حركة اصلاحية ، والله من وراء القصد .

رفيق وهبه

محاضرة

فى الائتلاف تحت لواء الاسلام

أو الجامعة الاسلامية وموقف الدروز منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا .

سادتى :

يسرنى أن أقول بينكم كلمتى . ومن أولى من الشباب فى أن يؤدى الرسالة الى الجيل المقبل، فان شباب اليوم هم الذين يكونون شباب

الغد وقواد المستقبل هو الشباب ساعد الامة القوى وقلبها النابض وباني عظمتها . فليعرفوا كيف يؤدون رسالتهم ويقومون بواجب امانتهم . ويتخففون من تبعات جسام على عواتقهم. ان شباب اليوم هم شيوخ الغد . وبروحانيتهم يخرجون النشء الجديد بحيث يكون تربة صالحة لأن يأتي بالثمرة الطيبة الزكية. ويخاري أن أقوم بواجبي من على هذا المنبر منبر جمعية الشبان المسلمين التي هي في أقل مايقال فيها أنها تنتظم الشبان المسلمين جميعا

ويسرني أيها الاخوان أن اتمثل بقول الشيخ رضى الشبيبي

. . . . . ياشباب اليوم اشياخ الغد

ياشبابا درسوا فاجتهدوا لينالوا غاية المجتهد

وعد الله بكم أوطانكم ولقد آن نجاز الموعد

غير مجد ان جهلتم قدركم عدد العلم وعلم العدد

واذا لم ترصدوا أخلاقكم ذهب العلم ذهاب الزبد

كونوا الوحدة لاتفسخها نزغات الرأى والمعتقد

ليس هذا الشعر ماترووونه ان هذى قطع من كبدى

سادتى:

الفرقة نتيجة طبيعية للقبلية التى كانت تسود بصورة وبيلة فى نفس العربى ووجدانه وفى كل تفكيره. وهى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى التى تحكم كل أمة فى عهد حداثتها، وليس معنى هذا ان العرب حتى أواخر القرن الخامس للميلاد كانوا فى دور طفولية محضة بحكم مقاييس الارتقاء من حيث الكيان الحيوى والوضعية العامة، وانما المعنى أن العرب الى مستهل القرن السادس كانوا لم يزايلوا ويتحللوا من العقلية القبلية على الوجه العام.

وهذه العقلية التى كانت تتغلغل بعصبية حادة جعلت العرب زمنا طويلا لا يعرفون معنى للامة ولا معنى للقومية وان ظهرت بعد ذلك بوراق هذه الشعور ارتسمت فى نسيئة الشهور والاسواق الموسمية وهذان مظهران لنا أن نجعلهما من مظاهر بدو الفكرة القومية عند العرب فالاول أى نسيئة الاشهر أدت اليها حاجة عامة شعر معها العرب

بضرورة التعاون وضرورة الائتلاف ووجوبهما فكان العربي في هذه الأشهر يهادن العربي تحت الشعور بالحاجة الشديدة إلى المهادنة حتى كانت النسيئة مفخرا من مفاخر الجاهلية الاولى

وهذا شاعر عربي يفخر بالنسيئة التقليدية

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

والواقع أن في النسيئة بارقة قوية من بوارق الشعور بالقومية والعمل على التعاون الشعبي

فالنسيئة كانت وليدة الشعور البليغ بالاجتماع فانها من الوجه التحليلي ترجع الى عناصر هذا الشعور وهي جزء من التشريع التقليدي للعربية القديمة مبنيا على فكرة تحريم الاشهر الذي هو لون من التعاون الشعبي أوسع من اعتبارات القبلية متخذا شكلا دينيا عميق التأثير بعيد النفوذ وكان هذا التحريم يستغرق أربعة اشهر متوالية ثم يتعرض العرب من بعدها للشنائن والشحناء والتعادي الوبيل فجاء تشريع النسيئة تشريعا يخفف من هذه

الحمى ويلطف من مفعولها ومن ثم كانت حاجة اكيدة من حاجات التعايش في ظل الجنس. واذا تناول القرآن هذا الجانب من الشريعة التقليدية بالنقض في آية (انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله) فليس ذلك لانه يحارب هذا المعنى الرمزي في النسيئة وانما يرمي القرآن الى محاربة السلطة التشريعية في الاشخاص ويجمع هذه السلطة في الله وحده . حتى لا يكون أحد من الناس مصدرا للتشريع الديني . ويظهر هذا واضحا في قوله تعالى (ليواطئوا عدة ماحرم الله) فالنسيئة اذاً مظهر للاجتماع العربي الوليد :

وفي الاسواق الموسمية مظهر آخر من مظاهر هذا الائتلاف ولكن يتناول الفكرة والدين واللغة : فهو من هذه الناحية اعظم اثرا وأبعد مدى وأقوى مفعولا : ولا ينكر ان هذه العوامل أعدت الفكرة العربية للاجتماع الخطير الذي قام به النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان له أن يغير الاوضاع ويقلب المجتمع ويكونه

تكوينا آخر صالحا وينفخ فيه من روح الحياة الصحيحة ويبعثه بعثا له اعتداده الشعبي بكل المعنى . ويمسح مسحة ثانية لها خطرها وشأنها ولها نبلها ورفعتها وتساميها وتعاليها السامق ، وفي الحق أن النواة التي اجتهد النبي محمد صلوات الله عليه بغرسها في نفس العربي قد لاقت تربة صالحة ، بما مهد لها من هذه العوامل التي فعلت فعلها الاول . ففيرت الجبلة وهذبت العقلية وسوت من التباينات القائمة . وليكون ما تقدم من هذا مقبولا ومسلما نضع بين ايدينا سورة (قريش) التي نفهم من روحها ان دعوة النبي (ص) لم تكن بعيدة عن فكرة الحاجة والتذكير بها . هذه السورة التي تبين لنا شكلا من اشكال الدعوة المحمدية الصحيحة . والتي تبين من وجه آخر أن العرب ولا سيما قريش كان عندهم من النضج الحيوي ما يصح أن يكون مقدمة لاعداد الانقلاب الرسولي الخطير الذي شمل العرب جميعا . وغير صحيفة حياتهم وطابعهم الانفصالي ولذلك نسمع القرآن يقول في السورة المذكورة (لايلاف

قريش ايلافهم) وايلاف لفظ يحدد معناه كلمة الاتحاد كما ترجمها به مولانا محمد علي الهندي في ترجمته للقرآن المحررة اذن قد كان في قريش اتحاد وقد كان من لغة الدعاوة المحمدية الفاظ المصالح الارتفاقية في فاتحة أمرها ، واللغة التي تستعمل في هذا الدور تحدد تماما الاهداف والاغراض في الحركة. ومع اننا لا نشك بان هذين المظهرين وهما النسيئة وبالاحرى تحريم الاشهر والاسواق الموسمية التي كانت تنتظم في عكاظ وذي المجاز وسواهما يعبران اتم تعبير عن طور تكوني جديد في طبيعة العرب ؛ لا يسعنا الا ان نحكمها بالعصبية ولا ان نجردها تماما عن الروح القبلية السائدة.

وهذه الروح التعاونية انما استوت على اكمل وجوهها واستقرت على اسمى اوضاعها بالانبعاث النبوي ، ولقد جمع النبي (ص) كل أدوات الجهاد في بث هذه الدعاية واحلال هذه العقيدة وتاجيج هذه الروح واثارتها .

ولقد جهد النبي صلى الله عليه اكبر الجهد في محو العصبية والقضاء

على كل فرقة ، واقامة الوحدة الصحيحة والاجتماع المتين فى ظل الدين

ولم يحاول المصطفى محاولة سلبية فقط تقتصر على هذا الجانب الذى كانت غايته القضاء على فكرة القبلية فقط ، بل تجاوزه الى عمل انشائى ووضع ايجابى يتناول تهيئة الخطط واقامة التصميمات على (حد تعبير المهندسين) ووضع البرامج الثابتة التى تتلاءم مع النفسية والروح وتمتزج بالوجدان أو هى تكون الوجدان الحقيقى وما فتىء النبى جاهدا يعمل بملء عزمه على تحقيق هذا الهدف واحلاله قبل أى اعتبار من اعتبارات الشريعة المقدسة لأنه منها بمنزلة الاساس أو حجر الزاوية

ولقد حارب النبى (ص) على مختلف الاشكال ومتعدد الصور جاعلا لهذه المحاربة شكلا دينيا رهيبا حتى قال (ليس منا من دعا إلى عصبية) ولقد خصها باعظم قسط من خطبة الوداع ثم غالى فى شأنها حتى جعلها وصيته الاخيرة كما أخرج البخارى فى (كتاب

العلم) عن أبي بكرة قال (كنت آخذا بزمام ناقة النبي فقال أي شهر هذا فسكتنا حتى ظننا انه سيسميه سوى اسمه فقال أليس بذي الحجة قلنا ثم قال بلى أي يوم هذا فسكتنا حتى ظننا انه سيسميه سوى اسمه فقال اليس يوم النحر قلنا بلى ثم قال أي بلد هذا فسكتنا حتى ظننا انه سيسميه سوى اسمه فقال أليس البلد الحرام قلنا بلى فقال أن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، الا فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع) فكانت هذه الدعوة الى محو العصبية والى الاخاء الصحيح والتعاون في حقل الدين والاجتماع وكل مظهر آخر من مظاهر الحياة ، معنى من معاني الدين وروحا من روح الشريعة الغراء (كما بسطه الاستاذ العلايلي في كتاب مقدمة التفسير)

ولقد فارق النبي الدنيا وهو راضي مايكون أن حقق هذا الهدف وبلغ هذه الامنية ، وجعل من العرب أمة موحدة مجتمعة تشعر

بشعور واحد وتميل ميلا واحدا ، حتى كانت متراصة لان فى هذا التكاتف ناموس المسلم الصحيح وتمام المعتقد القرآنى ، قال تعالى (لو انفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم) (انما المؤمنون إخوة) وقال النبى (ص) (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وأولئك الذين كانوا أقرب الناس اليه صلوات الله عليه ، وفقهوا من معنى الدين الشىء الكثير ظلوا محافظين على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة .

ولقد عانى الخليفة الاول أشد العناء فى أن لا يشذ أحد عن هذا المبدا مبدأ التعاون الاسلامى .

ولقد حصر رضى الله عنه كل اهتمامه فى المحافظة على بناء المسلمين يدون تصدع ولا تفسخ ، وربما كان اكبر عمل قام به هذا الخليفة الأعظم هو تعزيز هذا التضامن الاجتماعى الادبى ، وكانت كل ما آتيه واجراآته فى هذا السبيل جديرة بالاعجاب . وبلغت به شدة الحرص ولباقة المحافظة على الوحدة الاسلامية

مباشرها فى موقفين (الاول) موقفه من اختلاف المسلمين حيال موت النبى الذى كان به كالسكينة تنزل على قلب الخائف المذعور (الثانية) موقفه فى التنصيص على الخليفة من بعده ، الذى كانت الغاية منه أن لا يتعرض المسلمون لخلاف من نوع الخلاف الذى تعرضوا له بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، والظرف دقيق جدا لا يتسع لاى اختلاف . وذلك لانه مفعم بالفتوح الكبيرة الواسعة الاطراف . والمسلمون متوزعون فى بقاع عديدة وجهات مختلفة فكان أى اختلاف كافيا للقضاء على هذه القوى المتنائية . هذا الملحظ يجعلنا نكبر من إجراء الخليفة الاول فى اختياره الشخص الذى يلى الامر من بعده ، وبذلك يوطد ويمكن من الوضع الثابت والاستقرار المستمر الذى لا يعدد وجهات النظر . فأبو بكر الصديق عاش على هذا المبدأ ومات عليه ، وكذلك الخلفاء بعده حافظوا على هذه السنة ونشروها واستمسكوا بها حتى قضوا وهم يشهدون من الممالك الاسلامية عقدا منظما متماسكا عامرا بالاخاء وقائما

على الوحدة الصحيحة. ولكن بما أن هذه الفتوح اتت سريعة واتسعت

اتساعا كبيرا حتى انتظمت فى ظرف قصير أكثر العالم القديم وامتدت من المحيط إلى المحيط وضم الاسلام تحت لوائه عوالم من أجناس شتى ووشعوبا من مختلف الناس أجمعين ، وبينهم من التفاوت والاختلاف من حيث العنصر والدين والبيئة والطبيعة والتفكير والنظر إلى الامور العامة. فلا بدع أن سبب ذوب هذه العناصر الدخيلة فى جسم الاسلام مانرى بقاياه اليوم على صورة مصغرة. فان من هؤلاء من كان لهم سموم ولهم نفثات مزقت تلك العروة وبددت ذلك العقد ، فتكونت طوائف وفرق ، بعضها يقوم على غرض ديني ، وآخر يقوم على غرض سياسى ، وبتعبير آخر انبعثت هذه الاديان جميعها التى طغى عليها الاسلام فى مده القوى المدهش فى لحمة الدين متخذة شكلا منه ومظهراً من مظاهره ، فلم يكن هناك دين له شكل واحد وإنما هى أديان تلبست شكلا واحدا وتردت برداء . فكان

فى الاسلام يهودية اسلامية ومسيحية اسلامية ووثنية اسلامية لبست فى عقائدها واجتهدت، فى صوغ نحلها الاولى فى شكل سبيكة اسلامية مغرية وقد بقيت تتكاثر على مثل الانقسام الذاتى ، حتى أتت فى أكبر عدد مفروض . فوجدت الباطنية وأتباع المقنع واتباع ابن أبى العزاقر والقرامطة والكاملية والغرابية والمشبهة والمجسمة والمنصورية مؤلهى أبى جعفر المنصور إلى آخر ماهنالك من نحل

هذه فرق بعيدة الانتساب عن الاسلام . ولا يهمنا الآن تعداد الفرق التى نبتت فى المحيط الاسلامى متخذة شكلية اسلامية فقط ، فانه لم يبق من هذه الفرق التى تبعد عن الروح الاسلامية على مثل الخلاف شىء إلا النزر ، وعلينا الآن أن نجمع الهدف فى توحيد هذه الطوائف والفرق الباقية التى لاتبعد فى صميمها وروحها عن الاسلام بل تستقى منه وتغترف من حياضه ، وسبيل توحيد هذه الفئات سهل يسير لأنها تقوم على القرآن والسنة فى

أول ما تقوم عليه وإذن اختلفت أنظارها فى التأويل والتفسير ومقاييس الترجيح . وبالاخص فى هذا العهد عهد اليقظة والانبعاث الذى اختلف فيه النظر إلى الاشياء فلم يعد نظرا مريبا ولا نظرا ذاتيا

وهذا مايجعل الخطوة إلى التوحيد خطوة غير صعبة وقمينة ان تنجح لأنهم يختلفون وتضمهم نحلة ويتنازعون ويجمعهم معتقد

ولقد بدأ دعاة الاصلاح يهيبون بالناس إلى هذه الغاية ويحملون الطوائف على التفاهم . وهذه أصوات ارتفعت من الشيعه والزيدية والاباضية حتى الاسماعيلون فى العهد الاخير قام زعيمهم أغاخان بحركة واسعة ليفيئوا إلى الاسلام ويندغموا فى محيطه الواسع تحت دوافع شديدة من اليقظة والانبعاث والحاجة

ومن هنا بدت الدعوة إلى الائتلاف صعبة سهلة . صعبة لأنها تقوم على تقاليد وخلق موروث وسهلة لأنها تقوم فى وسط نحلة ويجتمع على معتقد

بيد ان الناس أصبحوا يدركون من أمورهم أكثر مما كانوا يدركون

ويرون الضرورة تقضى باجتماعهم ويحلون اختلافاتهم محلا ثانويا ويقطعون من حلقة تاريخهم فترة الاختلاف والجدال والتنازع الضال ليصلوا تاريخهم الحاضر بتاريخهم الماضى تاريخ العهد الرسولى وصحابته أجمعين .

وهذه الصرخات لابد انها تاركة صدى جواباً يفعل فى هذه التقاليد المستحجرة ويشذب منها ويهيئوها للتحالف الجديد الذى ينتظر أن تكون منه طينة الجيل المستقبل . وإذا لم تترك هذه الأصوات ألا آثارا تمهيدية فانها على أى الاحوال ستكون كحجر سنمار يقوم عليها بناء الهيكل الجديد للعالم الاسلامى العظيم . وانا باعتبارى كنا شىء بين الخلوة والجامع أود أن أرفع صوتى وأرفعه عالياً فى خدمة الغرض الاسلامى العام قياماً بالواجب وأداء للامانة الدينية ليتعرف المسلمون إلى هذه الطائفة التى لا يعرف الناس هنا من حقائقها إلا الشىء اليسير والشىء المشوه وقد فهموا أمورها ومعتقداتها على غير حقيقتها والتى لا يخرج مذهبها عن كونه مذهبا

اسلاميا له طريقته الخاصة فى التفسير والتأويل وبات نظاما دينيا وأصبح متبعا بحكم التوارث. ويقول بعض كبار الباحثين فى أمر هذا المذهب ان اعلانه - لو أعلن - مما يزيد تلك الطائفة احتراما وتقديرا وخصوصاً من حيث الاخلاق والمبادىء الروحية والآداب الدينية والاجتماعية. فهو قائم على حقيقة الاسلام ويتوسع فى تفسير بعض سور القرآن ويقر بالرسل والانبياء واليوم الآخر والبعث والنشر والثواب والعقاب

وقد قال بعض المؤرخين فيه مختلف الاقاويل وافتروا عليه شتى الافتراءات مما لا يمت إلى الروية والحكمة والاستقصاء بصلة مع أن الواجب يقضى على المؤرخ والمدرس والكاتب بأن يتحرى الحقائق ولا يدخل فى بحث حتى يطلع على حقيقته ويقف على كنه أسراره

والواقع الذى لا مراء فيه ان ما يظهر به القوم من آداب الدين والدنيا وعلائم التقوى والصلاح والفضيلة وما يتجلى فى محيطهم من مكارم الاخلاق ونبالة التقاليد فى المروءة والوفاء

ما يوجب التفكير الكثير . وما لقبوا بمعروف إلا من أجل اشتهارهم باتباع المعروف والابتعاد عن المنكر وليس هذا اللقب لعمر الحق بقليل ومن الخير أن تكون طائفة بهذه المزايا في مقدمة الطوائف في المحيط الاسلامي الاكبر

لذلك ينبغي أن يعرف المسلمون في هذا الشرق الاسلامي من هم الدروز وأي عنصر كريم هو عنصر بني معروف فتتضح الطريق وتنجلي الحقائق ويؤدي ذلك إلى التقارب وازالة عوامل القلى والتباين بين الطوائف التي تتشرف بالانتماء الى الاسلام

وسيعلم العاملون أنهم ان فعلوا فعلوا عظيما وقدموا خيرا عميما ومدوا يدا صالحة لأن القوم انبثقوا من الاسلام وما عرفوا الا في محيطه وبنوا تعاليمهم على القرآن الشريف ورافقوا المسلمين في جميع أزماتهم السياسية

وأما ماوراء ذلك من انه بناء خاطيء أو غير خاطيء . فهذا ليس من شأننا الان وانما من شأن الدعاة الذين سيقومون بهذه المهمة

والمسلمون على أى الاحوال ان فرطوا فى هذا فقد فرطوا فى عظيم وذلك لانهم يعملون الآن والحمد لله بملء اليدين على تحقيق الجامعه الاسلامية التى هى الجامعة الكبرى والغاية القصوى والامل المنشود . فكيف يتركون جانبا لم يعالجوه

فان كن المسلمون يريدون حقيقة أن يجمعوا من طوائفهم ويزيلوا شقة اختلافاتهم فمن واجبهم التعرف الى هذه الطوائف في بيئاتها وتغذية عامة الشعب وهى موطن الصلاح والفلاح فى كل أمة وكل قبيل بعناصر التآلف والآراء الصالحة المفيدة المثمرة المنتجة العائدة بالخير على الجميع . وكذلك يقول الشاعر القديم .

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وعلينا الآن أن نقول الحق الصراح بأن الجهود التى تبذل بين الطبقات المثقفة وحدها لا تأتى بالثمرة المطلوبة ولا تهيىء الاثر الذى نستهدفه

وكبير والله ان لا يعرف الناس من أمر الدروز الا الامور السطحية

وهم عنصر كريم ذو مآثر ومفاخر فى هذا الوطن العربى شاركوا فى تاريخه مشاركة شريفة منذ أقدم العهود. فما جرد سيف فى سبيل حق له مضاع الا كانوا فى مقدمة شاهريه ، ولا أرهف قلم دما إلا كانوا فى جملة من هفيه وكذلك شأنهم فى كل آن ولا سيما فى هذه الايام

وعلى أى حال فان فى المحيط الأسلامى حركة تجديد وتقدم مصدرها مصر ويشعر بها المسلمون فى مختلف الامصار وهذه ستحقق باذن الله مايحلم به الناس من الأمانى

وفى اعتقادى أن اليوم الذى سيلتقى فيه نظر المسلمين وتجتمع طوائفهم قريب وعسى الله ان يحقق هذا الاجتماع فى ظل المالك الصالح فاروق المعظم والان اتكلم عن هذه الطائفة من الوجهة الاجتماعية والخلقية لتكون شيئا معروفا كما هى شىء موجود فان ماليس بمعروف كما يقال ليس بموجود

لا أتكلم عن الدروز وأن مهد نحلتهم مصر ولا اتكلم عن الدولة الفاطمية وان الدرزية من أفكارها ومن آثارها فهو شىء

معروف للجميع وانما يهمني ان احصر موضوعي في ظاهرة اجتماعية تدور على الوجود الدرزي الحاضر او بعبارة أخرى إتناول المحيط الدرزي القائم اليوم وما تزدحم به بيئتهم من عادات وتقاليد واعتبارات ولا أتناول الفلسفة التي قامت عليها نحلتهم لانه قلما يتفق اثنان من غيرهم على رأي واحد فيها . وشيء آخر وهو أني اميل الآن الى العرض دون التحليل والتعليل الذي لا يتسع له الظرف اما عن عقيدتهم فانهم فرقة أسلامية قبل كل مناقشة أو عرض للنظريات الخاصة ، فقد اتسع لها الاسلام في الماضي ومهد لها من جوانبه وقامت على أساس اجتهادي منه. وعليه فهي لا تخرج ابدا عن التعاليم الاسلامية لان الاسلام الذي تنحصر قواعده في القرآن هو مرد هذا المذهب الذي يفسره على طريقته الخاصة في الاجتهاد والفقه وشيء آخر يجب التنبيه عليه وهو ان المذهب الدرزي لا ينقض الفروض الدينية ويدحضها[1] بل هو يفسرها ويؤولها ومعنى

(١) خلافا لما زعمه الاستاذ عبد الله عنان

هذا انه يعترف بها ضمنا وتقوم اجتهاداته وتفاسيره عليها.

وهـذا شاعرهم الاكبر امين بك ناصر الدين بل شـاعر الضاد يقول من قصيدة فى المولد الشريف عنوانها فضائل المصطفى

وهل يصطفى الرحمان الا مكملا ... يسابق اقطاب الكمال فيسبق

ويهزم اركان الضلال برشده ... ويهزم جيش الشرك والشرك مطبق

تبلج نور الحق من معجزاته ... فما ارتاب الا طائش اللب اخرق

فهل هو يرمى قومه وهو صفوتهم وموطن ثقتهم ومن حماه حوزتهم بالشرك والارتياب . . . الى ان يقول

كأن السما والزهر فيها طوالع ... بمدح رسول الله طرس منمق

ولولا اعتلاق الجاذبية نجمها ... لكاد برمس المصطفى يتعلق

. . . .

وما عجبى الا لمن جمعتهم ... شريعته الغراء كيف تفرقوا

غدوا شيعا من بعده كل شيعة ... تناكر أخرى والتناكر موبق

فروع لها الاسلام أصل وما أرى ... فروعا اذا لم يغذها الاصل تورق

وشتان ما قوم قد انبت حبلهم وقوم على ما يحصف الحبل اصعقوا
وقوم أباحوا كل ما هو منكر وقوم باخلاق النبى تخلقوا
فكونوا كجماع الثريا تكن لكم على دونها الشعرى تلوح وتخفق
ولست أرى هذا المذاهب كلها موانع من عقد لكم يتوثق
فيوقن من يسعى لتمزيق شملكم بان الجمال الشمل لا تتمزق

هذه هى الخلاصة فى العقيدة الدرزية التى لا يعلم اكثر الناس هنا عنها شيئا. وأنا الآن لا أريد أن انتطرق إلى موضوعها وربما تناولته فى محاضرة اخرى تكون العقيدة موضوعها ولا فرغ الآن إلى الناحية التى اجتهد فى عرضها. هذه الناحية التى هى المقام الاجتماعى الذى يشغله الدروز والبيئة التى تجمعهم والموطن الذى يضمهم

وهذه نبذة من مقال للعلامة بطرس البستانى الكبير صاحب (الجنان) ودائرة المعارف وهو ثقة عايش هذه الطائفة وساكنها وولد هو واباؤه فى أكنافها. فاذا تكلم عنها فانما يتكلم بحق وعن علم وإنما نؤثر نقل هذه الفقرات ليس لأننا نجهل هذا

الشيء ولكن اثباتا لعدم التحيز قال البستاني بعد مقدمة

مشائخهم ومعتقداتهم وآدابهم الاجتماعية : تنقسم هذه الطائفة إلى عقال وجهال فالعقال هم عمده الطائفة ولهم رئيسان دينيان يسميان بشيخي العقل، والاحكام الدينية متروكة اليهم وعندهم للوصية نفوذ تام . فان الانسان حران يوصي قبل موته باملاكه لمن يشاء ولذلك قد منحتهم الدولة العلية منذ القديم قاضي مذهب لدعاوى الوصايا . وقد أمروا بتجنب الشك والشرك والكذب والقتل والفسق والزنا والسرقة والكبرياء والرياء والغش والغضب والحقد والنميمة والفساد والخبث والحسد وشرب الخمر والطمع والغيبة وجميع الشهوات والمحرمات والشبهات ورفض كل منكر من المآكل والمشارب ومجانبة التدخين والهزل والمساخر والهزء والمضحكات وجميع الافعال المغايرة لأرادته تعالى والسب والقذف والدعاء بما فيه ضرر الناس وعندهم انه يجلى كل مؤمن التحلي بالعفاف والصيانة

والطهارة والفعل الجميل والكرم وبالعلم وخوف الله وطاعته والرصانة وصيانة العرض وحفظ اللسان والاثم والزور والبهتان مع استمرار ذكر الله وتسبيحه وتقديسه واقامة الصلاة والتضرعات والتوسلات بعزته تعالى ولا يجوز بشرعهم لاحد ما ان يخلو بأمرأة . وشأنهم التهذيب وكره الزيف والترف وكل عاقل ارتكب القتل أو الزنا أو السرقة أو غيرها من الاثام يطرد من مجالس العقال الذين يجلسون للقيام بالفروض الدينية ويبقى مطروداً الى ان تتحقق ندامته وتوبته ومن شأن الدروز إكرام الضيف والشجاعة والاقتصاد بالمعيشة ويسكنون الآن في جبل لبنان وقضاء راشيا وقضاء حاصبيا واقليم البلان والفوطة والشام وجبل حوران وجبل الكرمل ومرعش وحلب والحلة والكوفة ومنهم عشيرة بنمي لام في العراق وفي الغرب والهند (واليمن) وتناولنا من احد أدبائهم جملة اخرى هذا ملخصها يؤمن الدروز بان الدنيا حادثة وبوجود الله وان لا خالق ولا معبود

سواه وأنه قديم أزلى ابدى لا غرض لفعله غنى لايحتاج وحاكم قادر لايجب عليه شيء إن أثاب فبفضله وان عاقب فبعدله غير متبعض ولا له حد ولا نهاية . ويعتقدون بالقرآن الشريف اعتقاد أهل السنة الا أنهم يخالفون فى تفسير بعض آياته الكريمة

وتتضمن كتبهم على التوحيد وكيفيه خلق العالم واسبابه وعلله وذكر الانبياء واسمائهم وفضائلهم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يجب على الانسان ومالا يجب عليه واثبات المعاد والحساب والعقاب وكون النفوس باقية ازلية لاتفنى مستقرة فى امكنتها غارقة فى بحر عظمة اللاهوت تفنى الاجساد القائمة بها وتتلاشى وهى باقية إلى الابد لاتفنى ولا تتغير وهم ينقسمون باعتبار الطريقة المذهبية إلى قسمين: طائعون ويعرفون بالعقال وهم السالكون بمقتضى الطريقة المذهبية كالامتناع عن التدخين وسائر المشروبات الروحية والابتعاد عن التأنق فى المآكل والملبوسات وسائر اللذات الدنيوية والاقتصار على التقشف فى المعيشة عملا بقوله عليه الصلاة

والسلام اخشوشنوا فان النعم لاتدوم)

وأشهر اخلاقهم التمسك باداب الدين فالتقى منهم يحافظ على قوله كثيرا مهما كلفه الامر فان وعـد لا يخلف مهما حال دون وعده وان أؤتمن لم يخن وان حدث لم يكذب وان سئل عن أمر ولم يتثبته قال (الله اعلم) أما الجهال فلايسوغ لهم مطالعة القرآن الشريف ولا متون الحـكم . خلافا للمقال عملا بقوله تعالى (لايمسه إلا المطهرون) والطهارة عندهم الامتناع عن سائر المحرمات والممنوعات بما يشمل الملامسة الحسية والمعنوية . وإنما يسوغ لهم تلاوة شروح الكتب الدينية ولهذا يقال لهم شراحون ويمتاز العقلاء عن الجهلاء بكونهم أيضا يتعممون بالعمامة البيضاء ويلبسون الملابس البسيطة كالعباءة والقباء . أما شعائرهم · فختان الاولاد والزواج والطلاق والصلاة على الجنازة فهى طبق الشعائر الاسلامية غير أنه ليس من عوائدهم أن يتزوج احدهم بغير امرأة واحدة تفسيراً لقوله تعالى (وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وقال تعالى (ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) وشيوخهم لا يتداخلون فى الامور الدنيوية

والسياسية بل ينصرفون الى القاء المواعظ والارشادات على ابناء طائفتهم

من هنا يتبين أن هذه الطائفة تربة صالحة لتنمية الفكرة الاسلامية . لانها تخضع لوجدان اخلاقى كامل هو من الاسلام ومن اسمى مايدعو اليه الاسلام وإذا كانت الغاية من بعث النبي ايجاد هذا الرباط الاخلاقى المتين كما قال صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) فان الدروز يجيئون اذن فى الدرجة الاولى من جماعة المسلمين عامة. فهم أكثر الناس تمسكا بروح الاسلام وتقاليد الاسلام وعاداتهم الشريفة الموروثة .

وختاما أقول بأن الدروز فئة اسلامية مهما بعدت بنظر البعض عنه فانها منه وعلى رجالنا العاملين الذين يريدون خدمة الاسلام ان يتعرفوا اليهم ويتعاونوا مع الطبقه المثقفة منهم على نشر التعاليم الصالحه للجميع وعلى من يعرفهم من عقلاء المسلمين أن يعرفوا العامة منهم اخلاق الدروز وعاداتهم المعروفة ويزيلوا ما علق باذهانهم من الشك والاوهام فيعلمون انهم إخوانهم فى الاسلام لهم مالهم وعليهم ماعليهم فهم مسلمون بايمانهم وتقاليدهم

وعاداتهم، مسلمون بزواجهم وجنائزهم وأعيادهم ، مسلمون بكل مايقره الاسلام فان قصر أحد بالقيام بالفروض الدينية فالذنب عليه فقط . نراهم يقولون خيرا ويكرمون الضيف ويجيرون الجار قال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو يصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه . رواه البخارى ومسلم.

أجل اين نحن أيها القوم من قوله صلى الله عليه وسلم لاتحاسدوا ولا تناجشوا . ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرء من الشر ان يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه رواه مسلم عن أبى هريرة

فكل هذا يقره الدروز ويعلمون به فمن اين لنا أن نكفرهم ونرميهم بالارتداد وهم فى هذه الايام أشد جهرا باسلامهم من من ذى قبل عن رغبه لاعن رهبه .

ويؤكد هذا فتاوى تثبت وجودهم فى حظيرة الاسلام من مشيخة الاسلام فى عهد السلاطين ولا سيما فى عهد السلطان عبد الحميد وهناك فتاو حديثة لها قيمتها اذكر منها فتوى المجاهد الاسلامى العظيم سماحة الحاج امين افندى الحسينى مفتى القدس الاكبر وهو كما لا تجهلون فى مقدمة الشخصيات الخطيرة التى تسعى الى تحقيق الوحدة الاسلامية الكبرى ومن علماء العهد الحديث من يعدهم باعتبار تعاليمهم من ارباب الطرق . فهم يشبهون الوهابيين فى كل اعمالهم وطريقتهم تقرب من الطريقة النقشبندية : والذى يشهد لتمسكهم فى هذا الذى نقوله جريدتهم الصفاء الحرة التى بلاغة أصحابها ونزعتهم الشريفة أشهر من ان تذكر وهى اقدم جريدة فى لبنان ما فتئت تدافع وتتنافح عن الاسلام والمسلمون فى بقاع الارض ، وتنشد الخلافة التى انحل عقد المسلمين بانحلالها وتبددت الوحدة وانفصمت عرى الاتحاد بانفصامها . والمدرسة الداودية التى هى اقدم مدرسة لهم وارقاها بل من ارقى مدارس

لبنان. ويديرها زعيم من زعمائهم هو عارف بك النكدى مدير العدلية فى سوريه فان فى مقدمة برامجها الرسمية تدريس القرآن والدين والتعريف بالنبى الاعظم الى آخر ما يجب على كل مسلم ان يكون ملماً به غذيا بروحه. ويدرس هذا الفرع عالم من علمائنا من قبل جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية فى بيروت والنادى الاصلاحى الذى يضم نخبة ممتازة من الافراد العاملين من محامين واطباء ومفكرين ووجهاء يعملون بنشاط لهذا الغرض. وانى قبل ان ازايل موضوعى أعيد ماذكرته آنفا وكلى ايمان به وعقيدة بأن الفكرة الاسلامية بشكلها الاجتماعى ابتدأت والحمدلله تأخذ محلا من النفوس وتفسح لنفسها مكانا وهى من تباشير الجامعة الاسلامية الحقيقية حتى تكون كواقع ان شاء الله لا كفكرة .

ومتى رايت من الهلال نموه ايقنت ان سيصير بدراً كاملا

وارجو الله ان يتحقق هذا الاجتماع فى ظل الملك المحبوب فاروق الاول حرسه الله وأيد مجده وادام سعده والسلام .